

العلم والجائحة: عبر وتحديات

Science and the pandemic: across and challenges

آمال علاوشيش*

جامعة الجزائر 2- أبو القاسم سعد الله
amel.aloouchiche@univ-alger2.dz

تاريخ القبول: 2022 / 05 / 04

تاريخ الاستلام: 2022 / 04 / 24

Abstract:

The topic of this paper falls within a pause that we need to take in light of an epidemic reality that has escalated among us to become inevitable. We are forced to adapt to its developments at all times, especially since Covid-19 has taken us seriously and we were not prepared at all levels, health, cultural, social and economic to confront The crisis that caused its emergence at the global level, and if we have recently witnessed a somewhat receding of the pandemic, the World Health Organization did not undertake to announce this officially, a situation that forces us to pause with oneself to take a lesson from the past on the one hand, and to face ourselves with the upcoming challenges

Keywords: Pandemic, preparedness, crisis, threat, science.

*المؤلف المرسل: آمال علاوشيش

البريد الإلكتروني: amel.aloouchiche@univ-alg2.dz

الملخص:

يندرج موضوع هذه الورقة ضمن وقفة نحتاج إلى القيام بها في ظلّ واقع وبائي استفحل بين ظهرانينا ليصبح حتمية نحن مضطرون إلى التكيف مع مستجدّاتها في كل حين، خاصة وأن كوفيد-19 باغتتنا بشدة ولم نكن في حالة تأهب على جميع المستويات، الصحّة والثّقافية والاجتماعية والاقتصادية لمواجهة الأزمة التي تسبب في انبثاقها على المستوى العالمي، وإن كنّا نشهد في الآونة الأخيرة انحسار الجائحة نوعاً ما فإن المنظّمة العالميّة للصّحة لم تتولّى إعلان ذلك رسمياً، وهو الوضع الذي يفرض علينا وقفة مع الدّات لأخذ العبرة من ما مضى من جهة، ولنواجه أنفسنا بالتحديات القادمة.

الكلمات المفتاحية: الجائحة، التأهب، الأزمة، التهديد، العلم.

1. مقدمة:

ونحن نتحدّث عن العلم في زمن الجائحة لاشكّ أننا سننظر إليه نظرة إطرأ وتمجيد له والمعرفة في مختلف صورها ومجالاتها بما أنّهما الأساس في بناء أيّ صرح حضاريّ وتاريخ الحضارات منذ القديم يشهد على ذلك، فالعلم هو السّبيل الوحيد لتحرير الأوطان والنّهوض بها.

وموضوع هذه الورقة يندرج في هذا السّياق لأنّ الوباء الذي عرفه العالم منذ نهاية 2019 والذي شكّل تهديداً غير مسبوق في كلّ الميادين، جعل العالم برمّته يقف متسائلاً عن مصيره ومستقبله الذي أضحى بيد عدوّ غير مرئيّ، وهو الذي كان يعتقد أنّه بما أحرزه من تقدّم علميّ قد أمسك بزمام مصيره ومستقبله.

2. الدّروس المستفادة أو ما الذي خلّفته فينا أزمة كوفيد-19 :

ربّما قد لا نختلف إذا قلنا بأننا لم نعد نتوقع الكثير من هذه الحياة في أيّامنا هذه بخاصّة منذ بروز شبح جائحة كووورنا أو كوفيد-19 للوجود منذ ما يقارب الثّلاث سنوات، وهذا بسبب ما أفرزته تداعيات هذا الفيروس في نفوسنا من شعورٍ بالريبة والشكّ وتزعزع اليقين بالمستقبل، الأمر الذي جعل مشاعرنا تختصر

في الحنين والرغبة في أن نعود إلى ما كنّا عليه فحسب، أي إلى حياتنا العادية السابقة، ومنه فقد كان لتأزم الوضع الصحي العالمي تداعيات جمّة على حياة الأفراد في كافة بقاع المعمورة، وكذلك الوضع من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والقيمية والصحية والأنطولوجية.

هذا الوضع فرض الحاجة إلى إعادة صياغة السؤال الفلسفي ليصبح سؤالاً إنسانياً وقيماً بامتياز يتم تحيينه حتى يتمشى ومستجدات العصر الإشكالية والمستعصية، إلى درجة أننا يمكننا أن ندعي بأنّ كلّ البشر أضحو فلاسفة بمعنى ما بسبب ما أنتجه الوضع الصحي الحالي من عزلة وفراغ نفسي وتعليق للحياة البشرية، وخوف من المستقبل البشري الذي بات مظلماً بشكل غير مسبوق، وكذلك طرح استفهامات محيرة تنبئ بعمق المعاناة واستفحالها وتعيد السؤال عن معنى الوجود والحياة إلى الواجهة.

فكان من أبرز ما خلفه فينا واقع معاناة الوباء أنّه أعاد طرح الأسئلة الوجودية من قبيل: لماذا نعيش؟ وكيف نحيا؟ وما هي احتياجاتنا الحقيقية؟ وهو ما يعني إعادة ترتيب الأولويات والتحرر من سجن الاغتراب والتبعية الذي حبستنا فيه الحداثة وما بعدها، وربما فترة الحجر الصحي (confinement) هي المسؤل الأول عن عودة هذه الأسئلة¹.

- علّمنا جائحة كوفيد- 19 أننا كائنات هشة (fragiles) وقد أثبت ذلك فيروس ضئيل، لينهار الاعتقاد بأنّ الإنسان أضحى سيّد الطبيعة ويسيطر عليها، وبالتالي اهتزّ الاعتقاد بأنّه سيّد مصيره وأنّ بوسعه التحكم والتنبؤ بمستقبله، نحن مخلوقات عاجزة وضيئلة وضعيفة أمام الألم والموت²، ليكون اللايقين (l'incertitude) جزءاً من وجودنا بل وعنصراً جوهرياً فينا، فالحياة إنّما هي مغامرة ولا أحد يعرف ما يخبّوه له الغد، الأمر الذي يحيلنا إلى ضرورة مراجعة علاقتنا أو تصوّرنا عن الموت الذي كنا نعتقد أنّه نهايتنا الآجلة، ليصبح قدراً

يترصّ بنا في أي لحظة، خاصّةً عندما يجد المرء نفسه يودّع أشخاصاً أعزّاء دون مراسيم وداع³.

- علّمتنا الجائحة أن لا هرمية في المجتمع، فليس هناك من هم ضروريون ومن هم أقلّ ضرورة، فالطبيب واجه المرض بحياته وعامل التّظيف فعل الشيء نفسه، وبالتالي علينا مراجعة أعرافنا وتقاليدينا وذهنياتنا العنصريّة في كثيرٍ من الأحيان، وبهذا فقد أتاحت الأزمة الصحيّة كشف الفوارق الاجتماعيّة واللاعادلة بل وعزّزتها، إذ تبين أنّه ليس للجميع بيتٌ ثاني يستطيع اللّجوء إليه في مثل هذه الظروف، كما لا يتمتّع الجميع ببيتٍ واسعٍ يسع صخب أطفالٍ في الحجر، ناهيك عن الّذين لا مأوى لهم واللّاجئين والمغتربين الّذين شكّل الحجر بالنّسبة إليهم مأساةً مزدوجة⁴. لقد جعلتنا هذه المأساة نعترف بالمرّضين وعمال التّظيف والتّسليم والأمن والحماية والأطباء والمعلّمين، وإجمالاً كلّ أصحاب المهن المهمّة الّتي أعيد لها الاعتبار⁵.

- كشف أزمة كوفيد- 19 بمفهوم الفيلسوف والإبستمولوجي الفرنسي المعاصر إدغار موران Edgar Morin (م 1921) عن تعقّد الوجود الإنسانيّ وتشابكه وارتباط مجالاته، حيث اتّضح أنّ التّطور العلميّ والحداثي أوصلنا إلى بربريّة جديدةٍ في ظل حضارةٍ زائفةٍ وقناعاتٍ أكثر زيفاً⁶، فأضحينا نشكّ في قدرة العلم والمعارف السّائدة والتّكنولوجيات المتوقّرة⁷، ليعبر الفيروس عن مؤشّرٍ عنيفٍ لأزمةٍ في الحياة الأرضيّة، وليجعلنا نبحث عن معنى جديد للعيش والتّعايش على المستوى العالميّ لا المحليّ أو الإقليميّ، يكوّن بحجم التّهديد الّذي طال البشريّة جمعاء والّذي لم يميّز بين غنيّ وفقيرٍ، ولم يأخذ في حسبانهِ أيّ اعتبارٍ، إذن نحن متساوون أمام خطر الموت.

3. التّحديات أو ما الّذي أضحى علينا القيام به لمواجهة الوضع؟

ضمن هذا السياق، فإنّ لجوءنا لمفهوم الأزمة - وهي متعدّدة الأوجه- والتي انجرت عن هذا الوباء هو في واقع الأمر كما تقول الفيلسوفة الأمريكية جوديت بتلر - في حوارٍ أجري معها- أمرٌ لا مفرّ منه، لأنّ الوباء في حدّ ذاته أزمة أدّت إلى تفاقم الأزمات السّابقة وقادت إلى كشف الضّعف الذي تعاني منه مجتمعاتنا، ضعف الإصابة وضعف الاستجابة وضعف الانتماء، نظراً لانعدام المساواة الاجتماعية، بسبب حرمان فئة الضّعفاء من الرّعاية الصّحية، ليصبحوا بذلك أكثر عرضةً لخطر الموت⁸، وبالتالي نحن بحاجةٍ إلى الانعتاق من جاهلية الداروينية والوعي بأننا في هذا الكون، بجميع مخلوقاته وأحيائه نشكل كلاً واحداً.

هذا إلى جانب أنّ غايتنا من استخدام هذا المصطلح هو التأكيد على دوره من النّاحية الإستيمولوجية في تقدّم العلوم عبر التّاريخ وفي جميع ميادين المعرفة الإنسانيّة، حيث لا ينكر أحدٌ شعور العجز الذي ولّدته الجائحة في نفوس العلماء من أطباء وبيولوجيين ورجال سياسةٍ ومختصّون في علم الأوبئة، ممّا يسمح بالقول بأنّها شكّلت أزمةً في تاريخ العلم المعاصر، وذلك برغم ما أحرزه العلم من تقدّم لا يستهان به خاصّة في مجال البيوتكنولوجيا، إلّا أنّه وإنّ بدّت بهذه السّلبية فهي من زاويةٍ أخرى لعبت دور الدّافع والمثير والعائق الذي يدفع إلى ضرورة تجاوزه وتخطّيه بفكرٍ خلاقٍ ومبدعٍ، تُكوّن غايته عودة الاستقرار.

ولعلّنا في هذا السّياق نستحضر فيلسوف العلم الفرنسي المعاصر غاستون باشلار Gaston Bachelard (1884-1962) وتحليله لتاريخ العلوم لا محالة، خاصّة وأنّ جائزة كوفيد- 19 الّتي لا تزال بين ظهرانينا استدعت العلماء من خلال الحكومات، وتبيّن أنّ البعض منهم يرتبطون بعلاقاتٍ مصلحةٍ مع الصّناعة الصّيدلانية، كما اتّضح أنّ العلم ليس مجموعة حقائق مطلقة إنّما تتقهقر نظرياته بفعل الاكتشافات الجديدة، بالإضافة إلى ذلك فإنّ التّقدم العلميّ هو

خلاصة تعاون (coopération) ومنافسة (compétition) لكن شريطة أن لا تتحوّل هذه الأخيرة إلى سباق (concurrence)⁹.

- شكّل الوباء دعوةً صريحةً لاستخدام العقل الفلسفيّ وذلك لإيماننا بقدرته على إيجاد الحلول وليس طرح الأسئلة فقط، وكذلك إعادة توجيه الانشغال الفلسفيّ ليصبّ في قلب القضايا الراهنة والتي تخصّ الأزمات على اختلافها، لتبرز الجائحة ضرورة تعزيز الحماية والتأمين ضد المرض والحوادث والبطالة، وبالتالي تعزيز السياسة الصحيّة والاجتماعيّة للمواطن¹⁰.

- لقد وقع العلم المعاصر تحت تهديد التجزئة والتقسيم والتخصّصات المفرطة المتناهية الدقّة لينجرّ عن ذلك استبعاد الطبّ التقليدي أو الشعبي - الصّيني على الخصوص- لصالح الصّناعات الصّيدلانية¹¹، هذا بالإضافة إلى أن الجائحة استدعت إعادة النّظر في طبيعة الإنتاج العلميّ ومدى قدرته على التكيف مع مستجدّات الواقع والاستجابة لها، ولعلّنا لاحظنا جميعاً كيف اتّجهت جميع البلدان إلى تكوين لجانٍ من العلماء طلباً للنّصح والحلول العمليّة، وإدارة الأزمة، فتجلّت فائدة توقّر خبراء محلّيون يتابعون تطوّرات الوباء وتفشّيه¹².

- يعتبر التّحدي الرّقمي من أكبر التّحديات التي بتنا نعيشها ومطالبين بتحقيقها خاصّةً في حالات الطوارئ (état d'urgence)، حيث أبرزت الأزمة قيمة التّكنولوجيات الرّقمية التي تجلّت في مجال التّعليم (enseignement à distance) والصّحة (télémedecine)، بل وفي استعمال الطائرات بدون طيّار (drones) للكشف عن ارتفاع درجة الحرارة وسط الحشود، وتسليم العينات الطبيّة للاختبار¹³، خاصّة وقد لاحظنا جميعاً كيف تمكّنت شبكات التّواصل الاجتماعيّ عبر النت أثناء فترة الحجر الصحيّ من فكّ العزلة غير المعهودة على سبيل المثال، وإن كنا لا نستبعد خطر اقتصاد الهروب الذي انجرّ عنها (économie d'évasion) ممثلاً في نوادي المواعدة (clubs de rencontre) والترفيه العطلي (vacances de)

(loisirs) وتطبيقات عديدة أخرى، ووكالات السياحة¹⁴، الأمر الذي حوّلنا من حياة واقعية لصالح حياة افتراضية (vie virtuelle).

- لقد أضحى تعزيز الوعي العام بدور العلم في بناء المجتمعات حتمية لا مفرّ منها وفي هذا السياق علينا أن نجتهد في خلق اقتصادٍ صحيّ يتجاوز التّسمم الحضاريّ وطغيان التّزعة الاستهلاكية، من قبيل إدماننا للسيّارات كوسيلة نقل، والتّدهور الإيكولوجيّ الذي مسّ نوعية الحياة ذاتها، ناهيك عن نوعية الحياة التي أضحت تعتمد على المهدّئات والمخدّرات والمنشّطات ومضادّات الاكتئاب¹⁵.

لقد أثبتت الجائحة عدم استقلاليتنا الصحيّة والإجراءات التي اتّخذت من تباعدٍ جسديّ وغيرها أهملت طرق الوقاية عن طريق التّغذية الصحيّة التي من شأنها تقوية الجهاز المناعي¹⁶.

هذا ولعلّ أكبر تحدّي هو أن نعمل على تهيئة أنظمتنا لتكوّن في حالة تأهبٍ، وهو المفهوم الذي عرفته الأمم المتّحدة (ONU) ومنظمة الصحة العالميّة (OMS) بالقدرة التي تتمتع بها الحكومات والمنظّمات المهنية المسؤولة عن الاستجابة والمجتمعات والأفراد، على التنبؤ بآثر الطوارئ الصحيّة أو الأخطار أو الأحداث أو الطّروف، سواء كانت محتملة أو وشيكة أو حالية، والكشف عنها والاستجابة لها بفعالية والتّعافي منها¹⁷، خاصّة وأنّ الجائحة أبرزت وبجلاء تبعيتنا الصحيّة، وهو واقعٌ عالميّ سمح للصّين أن تبرز فيه، حيث اقتصر النّظام الصّحي على محاولة تنظيم مشكلة نادرة بعض اللّوازم الصحيّة مثل الأقنعة واختبارات pcr والمسحّات (écouvillons) الخاصّة بها والمفاعلات (réactifs) ليختصر الجهد في مجرد تسيير لوضع طارئ، كما أنّ الأزمة التي تولّدت أبرزت مستوى تبعيّة أوروبا للصّين والهند في غالبية المستلزمات الصحيّة في حال الأوبئة¹⁸.

وهو الوضع الذي يستدعي بدوره إعادة توزيع ميزانيات الدول على اختلافها ليكوّن الاتجاه الجديد هو الاستثمار في الإنسان وفي شروط بقائه الحيويّة بدلاً من

الاستثمار في إنتاج أسلحة الدمار، الأمر الذي تؤكد الميزانيات الضخمة التي تخصصها الدول على العموم لهذا القطاع.

تحدي آخر لا يقل أهمية هو التحدي الإيكولوجي المتمثل في تدهور المناخ وتقلص المساحات الغابية وضمحل التنوع البيولوجي والتلوث بأنواعه وظاهرة التصحر والاحتباس الحراري وغيرها من المشكلات الكارثية، التي تستدعي حلاً عاجلاً من طرف المجتمع الدولي بما أنها تكتسي طابعاً معولماً، نظراً لانعكاسه أخطارها على الحياة البشرية وبل وعلى بقاء الإنسان على هذه المعمورة، وقد أضى جميعنا يعرف مصدر هذا الفيروس.

4. خاتمة:

في الأخير نقول أنّ جائحة كورونا ما هي إلا إنذار للإنسانية جمعاء، ودرسٌ تعتبر منه حتى تعيد الاعتبار للإنسان وللطبيعة على حد سواء، وحتى تراجع ترتيب أولوياتها وتستثمر في الحياة بدل الاستثمار في الموت، بخاصة مع تزايد الكوارث الكبرى وتفاقم الأزمات الاقتصادية، وتزعزع القيم، وبروز شبح الحرب البيولوجية التي يلوح خطرها في الأفق، علّ هذا الإنذار يجد إرادةً سياسيةً واعيةً تنصت له وتنجح في لفت الرأي العالمي لأخذ الحيطة والحذر، من أجل ضمان بقاء النوع البشري على هذا الكوكب.

5. المراجع:

-Edgar Morin. **Changeons de voie les leçons du coronavirus**. (Paris: Editions Gallimard, 2020).

- <https://www.unesco.org/reports/science/2021/fr/science-pandemic> (consulté le

-Jean-Paul Sardon. **De la longue histoire des épidémies au Covid-19**. In: Revue Les Analyses de Population et Avenir. 2020, p 28. [www://population-et-avenir.com](http://www.population-et-avenir.com). consulté: (2/3/2022. 15.00h).

- حوار مع الفيلسوفة الأمريكية جوديث بتلر، ترجمة: عدوية الهلالي، في: منارات، العدد 4887، السنة 18، 2021.

- جامعة الدول العربية، نشرية الألكسو العلمية المتخصصة- العدد 2- 2022 - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

6.الهوامش :

¹ Edgar Morin. **Changeons de voie les leçons du coronavirus**. (Paris: Editions Gallimard, 2020), p 16.

² Ibid, p 17.

³ Ibid, p 18.

⁴ Ibid, p 21.

⁵ Ibid, p 22.

⁶ Ibid, p 20.

⁷ Edgar Morin. **Changeons de voie les leçons du coronavirus**, p 82.

⁸ حوار مع الفيلسوفة الأمريكية جوديث بتلر، ترجمة: عدوية الهلالي، في: منارات، العدد 4887، السنة 18، 2021.

⁹ Edgar Morin. **Changeons de voie les leçons du coronavirus**, p 25.

¹⁰ Ibid, p 60.

¹¹ Ibid, p 26.

¹² <https://www.unesco.org/reports/science/2021/fr/science-pandemic>

¹³ Ibid.

¹⁴ Edgar Morin. **Changeons de voie les leçons du coronavirus**, p 67.

¹⁵ Edgar Morin. **Changeons de voie les leçons du coronavirus**, pp (66-67)

¹⁶ Ibid, p 31.

¹⁷ جامعة الدول العربية، نشرية الألكسو العلمية المتخصصة- العدد 2- 2022 - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص 26.

¹⁸ Jean-Paul Sardon. **De la longue histoire des épidémies au Covid-19**. In: Revue Les Analyses de Population et Avenir. 2020, p 28. www://population-et-avenir.com. consulté: 2/3/2022. 15.00h

مجلة مشكلات الحضارة